http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد (1675) السنة السابعة - الاثنين (14) كانون الاول 2009

بغداد / شاكر المياح
تصوير / سعد الله الخالدي

ما ان اجتزنا حي النصر باتجاه منطقة معامل الطابوق (طريق بعقوبة القديم) حتى أصبنا نحن كادر (المدى) بخيبات أمل متعاقبة، الأولى تمثلت في ضيق الشارع ذي المسار الواحد والمخصص للذهاب والإياب، هو ليس طريقا، بل صراط مستقيم مد فوق سطح الأرض، فحينما تلتقي سيارتان متعاكستان بالاتجاه ليس بمستطاع سائقيها تجنب الخروج منه الى كتفيه الترابيتين، وبالتأكيد فانهما سيكونان سعيدين لو ان الأمر اقتصر على التراب وحسب وانما يتعداه الى الحفر والمطبات الطبيعية والصناعية.
وليس هذا فقط بل قطع السكراب المعدنية والقضبان الحديدية التي يحاول جميع مستخدمي هذا الطريق تجنب الانزلاق نحو الحافة الترابية له خشية ان تتسبب في انفجار إطارات عجلات سياراتهم، ومع هذا قد تتلامس مرايا السيارات الجانبية فيتقبلها السواق برحابة صدر على انها واقع لا بد من القبول به.

منطقة "أم الذبان"
أحياء بائسة .. خارج الزمن والتأريخ!

الأمل!

الخبز المر

مساء الجت

مواطنون: لم يزرنا مسؤول ولا مفرزة طبية ولا عضو مجلس بلدي أو مدير ناحية أو قائممقام ولا حتى مختار.. لا احد يتفقد أحوالنا ويطلع على معاناتنا الدائمة

طريق أنشأه الانكليز في منتصف العقد الثالث من القرن المنصرم ليربط لواء بعقوبة بالعاصمة مارا بمنطقة (كاسل بولس) ومنذ ذلك الحين وحتى اليوم لم تجر عليه أية اعمال صيانة او تطوير، او إنشاء مسار ثان له!

مكب نفايات

وعلى جانبيه أيضاً، ثمة أشباه منازل توزعت بأشكال عشوائية، وخيبة الأمل الثانية، ان هذه التشكيلات البنائية المشوهة، تكدست في باحاتها التي سورت باسيجة شتى، منها الأسلاك الشائكة، والبلوك، او المشبكات الحديدية.. عشرات الأكياس النسيجية التي يأتي بها (العتاكة) من مختلف مناطق بغداد، محشوة بأجزاء معدات ميكانيكية وأجهزة كهربائية تالفة وبطاريات السيارات، والتي تحوي بعضا من عناصر الألمنيوم والرصاص والبلاستك وغيرها من المواد التي تدخل في الصناعات المحلية المعادة وغير المرخصة.

ضحايا حوادث

خيبة الأمل الثالثة، ان هذا الطريق أنشأه الانكليز في منتصف العقد الثالث من القرن المنصرم ليربط لواء بعقوبة بالعاصمة مارا بمنطقة (كاسل بولس) التي كانت فيما مضى مستودعات خاصة بالجيش البريطاني، ومنذ ذلك الحين وحتى اليوم لم تجر عليه اعمال صيانة او تطوير، او إنشاء مسار ثان له، ولطالما شهد أحداثا مرورية ذهب ضحيتها المئات، وربما لا أغالي اذا ما قلت الآلاف.

غبار ثم غبار

الخيبة الرابعة، ان هذا الممر الضيق مغبر طوال ساعات النهار، وان عمال التنظيف بأزيائهم المميزة يسهمون بإثارة الغبار بمعداتهم الملونة، فهم يحولون أكوام الأتربة من مكان لآخر، وكلما انحرفت عجلة ما على الكتف الترابية بسبب ضيق الطريق، تهب عاصفة ترابية، وهكذا تتكرر هبات الغبار.

مياه الغسيل

الخيبة الخامسة ان هذا الممر والذي لا يتجاوز عرضه خمسة أمتار تحول وفي جانبيه الى منطقة صناعية بدائية جدا، بالرغم من لوحات محاله الفسفورية والتي حملت أسماء وعلامات تجارية غريبة، ناهيك عن كراجات غسيل السيارات التي تسيدت المشهد هي الأخرى وزادت من حيرة سواق السيارات نتيجة تسرب مياه الغسيل الى جانبي هذا الطريق المنكوب.

منطقة بدائية

كل شيء كان يوحي لنا باننا دخلنا منطقة لا تنتمي الى عصر بداية العقد الثاني من الألفية الثالثة، راودتنا الظنون باننا نتقصى عما هو في ماض موغل في القدم لكن هذه الظنون بددتها حركة عجلتنا (الكيا) ونحن نتبع (همر) قوة الشرطة الاتحادية التي رافقتنا في جولتنا العجيبة والتي ضمت المنتسبين الذين صحبونا بأمر من الرائد احمد والملازم الأول نعيم صخر.
شباب ممتلئون حماسة وشجاعة وحبا للعراقيين، هم من الفوج الثالث، اللواء الثامن، من الفرقة الثانية شرطة اتحادية.
اجزم باني ما زلت سادرا في وهمي باني أعيش اللحظة في دنيا لم أ ألفها، تراءت لي مثل شريط سينمائي يحكي قصة شعب من شعوب العصور الاولى للتأريخ، فأحسست بان دوامة ما حملتني الى ابعد من حدود الزمان والمكان، غير اني تحسست جسدي لما قرأت لوحة تحمل اسم (مدرسة الأفلاذ الابتدائية).
عاودني الوهم مرة أخرى وانا انقل بصري ذات اليمين وذات الشمال، حمير، خيول ضامرة البطون، أضلاعها البارزة تدل على ان الجوع قد أنشب أظفاره فيها، عربات خشبية متهالكة، حتى إطاراتها التي تشبه إطارات السيارات بالشكل وليس بالنوع محملة بالأعلاف والسكراب وكل ما هو لا ينفع في الحياة المعاصرة.
منطقة تحيا على أنقاض الماضي، وعلى مخلفاته، تأبى وبإرادتها مغادرتها، واقع ربما استمرأته فوجدت فيه ملاذا يقيها إشكالات الحضارة والتحضر والحداثة، فهي وكما بدا لنا لا تتسق مع معطياتها، ولا تستسيغ الانخراط في لجبها المحتدمة فاختارت ان تظل بعيدة عن تلاطم أمواجها، فارتضت ان تظل هكذا، مستسلمة لأقدارها ولوفاء مواشيها.

في ذلك المكان.. زرائب بشرية

الزرائب أسماء لأمكنة تعد للمواشي (الأغنام والأبقار)، اما ان يتساوى الإنسان مع مواشيه، فهذه خيبة أمل سادسة صدمنا بها، والأدهى من هذا، ان زرائب المواشي في تلك المنطقة كانت أجمل واكثر اتساعا من زرائب البشر، وأكثر نظافة وتشكيلا، المواشي في ذلك المكان حسبتها أغلى من الإنسان، للاعتزاز الكبير الذي تحظى به من لدن مالكيها.
سألته، هو شاب في مقتبل العمر: كم هو سعر الحمار؟
ضحك ملء شدقيه: بـ ١٥٠ او ٢٠٠ الف دينار.
حسبته يمزح معي فسألته ثانية: وبكم هو سعر الخروف او النعجة؟
تراجع الى الوراء قليلاً، فلم اتركه، بل لاحقته فلم يكن يفصلني عنه سوى سنتيمترات: قبل عيد الأضحى من ١٧٠ – ٢٠٠ الف دينار وبعد العيد تراجعت أسعار الخراف لتصل الى ١٣٠ الف دينار.
أبصرتها وكأنها تتلاشى وسط تل من العلب المعدنية، لم أكن لأدرك عنْ ماذا تبحث في ذلك التل المعدني المهول، دنوت منها حذرا ومتلمسا طريقي اليها خشية التعثر بأكوام منها، أو دخول قدمي بشكل مفاجئ في إحدى العلب الكبيرة ربما يؤدي الى كسر مفصل من مفاصل ساقي الواهنتين، ربما الصورة هي الأكثر إفصاحا من كلماتي التي حاولت فيها قدر الإمكان ان تكون قريبة في وصفها من الواقع، هي (أم مصطفى) امرأة في منتصف عقدها الرابع، اسودت وجنتاها، وذبلت عيناها حتى اني خلتهما عيني جثة فارقتها الروح.

قصص الناس

بيتنا هذا الذي تراه بنيناه من علب الصفيح المتوسطة الأحجام، بعد ان ملأناها ترابا ثم رصفناها فوق بعضها، ومن ثم (لبخناها) بالطين (الحري)، وقربنا من أنبوب الماء الرئيسي المار بجانب الشارع العام أتاح لنا مد أنبوب بلاستيكي (صوندة) بغية الحصول على مياه الشرب التي تصلنا بين يوم وآخر،زوجي لا يزاول عملا، هو مشغول بقطيعه الذي نعتاش عليه، لدي ولد وبنت سجلناهما في مدرسة الأفلاذ.
الفتى (محمد حسين) من سكنة بغداد الجديدة غير انه يعمل في هذه المنطقة اذ امتهن اعمال الجلي بالرمل (ساندي بلاس) الخاص بإزالة أصباغ هياكل السيارات، ذكر بانه ضجر من عمله في المنطقة التي كل شيء فيها لا يدل على الحياة.. الفتى (نعيم حسين) ذو الثمانية عشر عاما ما يزال أميا لكونه يعمل راعيا لأغنامه التي تجد في النفايات علفا مستساغا.
المواطن (السيد هادي) احد أصحاب بيوت الصفيح هو أيضاً يعمل غناما في المنطقة قال: ان النفايات توفر لماشيته علفا ممتازا وهو مضطر للعيش بين الازبال لهذه الأسباب، وصف الناس الذين يقطنون المنطقة بأنهم أبناء النفايات وشكا من انعدام الخدمات في عموم منطقة المعامل وحي العمار الذي يفتقر الى مستوصف وندرة مياه الشرب، المفارقة انه خريج الدراسة الإعدادية، وأوضح بانه طرق أبواب جميع الوزارات والدوائر الرسمية من اجل ان يحصل على وظيفة مناسبة غير ان جميع مساعيه باءت بالفشل.
ويسترسل: في الليل نعيش في ظلام دامس لعدم توفر الكهرباء والحياة هنا صعبة جدا ولا نملك مترا واحدا من ارض وطننا الفسيح، واستوطنا في هذه المنطقة منذ أكثر من ست سنوات، وقبل هذا كنا نسكن في ناحية علي الغربي التابعة لمحافظة ميسان.

منطقة (أم الذبان)

في الجزء الجنوبي من حي العمار ثمة منطقة شاع اسمها بين السكان يطلق عليها (أم الذبان).
وحالما وطئت أقدامنا أرضها المتعفنة هاجمتنا مجاميع هائلة من الذباب التي كنا نواجه صعوبة في أبعادها عنا فتطوع بعض المواطنين الذين التقيناهم للقيام بهذه المهمة حينما كانوا ينشونها عنا.
المواطنة (أم بنين) قالت: نحن نسكن هذه المنطقة منذ أربع سنوات بعدما كنا نسكن في ناحية علي الغربي وكما ترى فانا نعيش وسط الذباب والنفايات والصفيح وسقوف بيوتنا لا تدرأ عنا المطر الذي يبلل كل ما في داخلها.
بجوار بيوت الصفيح قطع أراض مسورة باسيجة من البلوك خالية من أي منشأ، سألنا عنها فقالوا انها تعود لمواطنين يسكنون خارج المنطقة سبق لهم ان اشتروها من سماسرة العقارات في المنطقة، يطلق عليها (ملك صرف صناعي).
سألت (السيد هادي):
علب الصفيح هذه لمن تبيعونها؟
– نبيعها لأصحاب المشاتل.
× وكيف تبيعونها بالجملة أم بالمفرد؟
– نبيعها بالمفرد وبسعر ٢٥ دينارا للعلبة الواحدة، وهي لا تعود لنا، بل لشخص آخر يسكن في المنطقة ذاتها.. وهل تتلقون عمولة عنها؟
ليس تماما، بل يمنحنا صاحبها بعض الإعانات المالية في بعض الأحيان.
وعن الأمراض التي تصيب الأطفال قال: ان مرض التيفوئيد هو أكثر الأمراض التي تصيب الأطفال، فضلاً عن الحصبة التي انتشرت بين الأطفال في الآونة الأخيرة والإسهال المعوي والتهابات الكبد الفيروسية، بان عليها الإملاق، لمحناها بين الأكداس، دنونا منها وسألناها عن اسمها فقالت: أنا (أم سجاد)، ومنذ أكثر من عامين أقمنا في هذه المنطقة بعد ان ارتحلنا من علي الغربي، ولم نكن نملك أرضا زراعية وانما نحن مربو مواش بشكل دائمي ونتنقل ونرتحل بشكلٍ دائمي أيضاً، وأنا متزوجة ولدي أربعة أطفال أكبرهم في السابعة من عمره ولم أسجله في المدرسة لكونها بعيدة عن مكاننا هذا، واذا ما أردنا تسجيله فهو بحاجة الى من يرافقه في ذهابه وإيابه وخشيتنا عليه من حوادث السيارات اذا ما تركناه لوحده.
(أم علي) امرأة طاعنة في السن لمحناها وهي تسجر تنورها، قلنا لها: كم لك من الأولاد؟
ثلاثة أولاد أكبرهم متزوج ولديه طفلان ولا عمل له سوى تربية المواشي وغالبا ما يصابون بالأمراض بسبب تلوث مياه الشرب، وقبل مدة قصيرة توفي احد أطفال أقاربنا الذي يسكن في المنطقة ذاتها لإصابته بالإسهال المعوي الحاد ودفن في مقبرة الأطفال القريبة من موقع إقامتنا.
× هل زاركم احد المسؤولين؟
– لم يزرنا أي احد من هؤلاء الذين تتحدث عنهم ولا حتى مفرزة طبية بيطرية وكثيرا ما تصاب مواشينا بأمراض منها، عجز قوائمها وتحدد حركتها، وكذلك بالجرب الحيواني الذي نعالجه بالقار (النفط الأسود)، ولا عضو مجلس بلدي ولا مدير ناحية ولا قائممقام ولا مختار، نحن منسيون تماما، لا احد يتفقد أحوالنا او يهتم بمعاناتنا الدائمة، نعيش هكذا خارج حدود المعقول والمقبول في منطقة اقل ما يقال عنها انها (أم الذبان).

حساء الجت!

شابتان في مقتبل العمر كانتا منهمكتين بإعداد طعام الغداء الذي دهشنا حينما وجدناه عبارة عن (مركة جت)، والجت هو العلف الرئيس لجميع المواشي، شقيقتان الكبرى اسمها (سهام جودة) التي قالت: نحن هنا منذ أربعة أعوام بعدما قدمنا من محافظة واسط/ قضاء الحي بسبب الجفاف وشحة الماء، عملنا يقتصر على رعي المواشي وكبس الازبال والنفايات، عدد مواشينا أكثر من ثلاثين رأسا من الأغنام تعتاش على ما يتوفر من أعلاف في مكبات النفايات المحيطة بنا غير ان أكثر ما نخشاه عليها هو إصابتها بالجرب فنضطر الى ذبحها وبيعها لحماً.
شقيقتها (وداد) ذكرت بانها كانت تدرس في مدرسة قريتها في ريف الحي، الا انها تركت الدراسة وهي في الصف الثالث الابتدائي وهي تجيد القراءة والكتابة.
× حسنا وماذا عن الماء؟
– الماء يأتينا من الشارع العام بواسطة (الصوندات)، وعائلتنا شطرت الى نصفين، الأول ما يزال في الحي والآخر مقيم في منطقة (أم الذبان) قالت هذا وضحكت، واسترسلت: كل الناس تتفاءل بالمطر الا نحن، فهو وبال علينا، ولك ان تتصور حالنا حينما ينهمر من بين سقوف حجراتنا الطينية وتنغلق الطرقات أمامنا، اذ تغدو الأرض محض طين وأوحال ومستنقعات، اما الكهرباء فنحصل عليها عن طريق الكيبل الذي مددناه عبر هذا المستنقع الى الدور التي بمواجهتنا.
× أين هي حماماتكم والتواليت؟
– أشارت بيدها نحو كتلة طينية سد بابها بستارة من القماش: هذا هو الحمام، ثم أشارت مرة أخرى نحو كتلة مشابهة للحمام تقع خارج سور البيت الطيني : وتلك هي المرافق الصحية.
(أم محمد) قالت ان زوجها يعمل سائقا لسيارات الحمل الثقيلة، وعائلتها لا تملك مواشي او أغناما، ولديها ستة أطفال، أربعة أولاد وبنتان، وكلهم في مدارسهم وأكبرهم بنت تدرس في الثاني المتوسط، ونفتقر الى الكهرباء ونعتمد في إنارة البيت على الفوانيس النفطية.

جامعو الازبال

في الجانب الآخر من المنطقة أبصرنا صبيانا وشبابا يبحثون في تل من النفايات، وفي ساحة واسعة امتلأت بالازبال اقتربنا منهم، كانت عيونهم مصفرة تدل على انهم يعانون من سوء التغذية، وأجسادهم في غاية النحول وبعضهم كانوا حفاة، سألت الصبي (علي):
× عن ماذا تبحثون؟
– نبحث عن علب (الببسي كولا) كي نجمعها ونبيعها الى أصحاب معامل الألمنيوم لإعادة تصنيعها.
وكيف تبيعونها؟
نحن نجمعها في أكياس (كواني) ونبيعها بالوزن (كيلوات)، سعر الكيلو الواحد بـ ٥٠٠ دينار.
× هل انتم في المدارس؟

لقمة العيش

الشاب (مرتضى) أشار بيده: تلك عربتي وذاك حماري مربوط اليها، أمارس بها عملين في آن واحد، بيع الغاز وجلب العلف لشياهي وفي أحيان أخرى تستؤجر لنقل ما يجمعه الأولاد من علب الألمنيوم.

الفقراء والانتخابات

بيته ليس ببعيد عن المنطقة، تجاوره حفرة واسعة جدا وعميقة كانت يوما ما مقلعا لأحد معامل الطابوق وبالقرب منه معدتان ثقيلتان، شغل وجرافة يقومان بفرش النفايات وتحويلها من مكان لآخر.
ذلكم هو بيت المواطن (أبو زهراء) الذي قدم هو الآخر من محافظة واسط وتحديدا من قضاء الحي قال: لا احد يتفقد أحوالنا الا عندما يقترب موعد الانتخابات، عندها تكال لنا الوعود البراقة (قصور وسيارات وكهرباء ومجار) (يسوون الهور مرك والزور خواشيك).
وقبل أيام زارتنا كاميرات عدد من الفضائيات وحثونا على انتخاب فلان وعلان، قلنا لهم: ما الذي كسبناه من الأولين حتى نكسب من اللاحقين الذين سرعان ما يتنصلون عن وعودهم اذا ما فازوا وينعمون بنعمة النسيان.

البحث عن الزمن المفقود